

تأملات في الأدب والحياة

لما فرغت من درس كتاب « أميل لود فيج » الذي سماه « بن الانسان » وخصه بالترجمة عن حياة عيسى بن مريم العظيم ، تابعت درس الموضوع من الوجهة التاريخية ، واشغف أحسنه وميل شديد الى الوقوف على تاريخ ذلك العصر ، عصر الانبياء وعصر المعجزات . ولا أنكر القارىء أنى كنت أشعر بميل شديد إلى قراءة الحوادث المتتابعة في حياة عيسى وحياة الذين عاصروه ، وعلى الأخص عند ما كنت أقع على تحليل معجزة من المعجزات التى تنسب الى عيسى أو عمل من الاعمال العظيمة التى تروى عنه ، أو قول مأثور من أقواله التى قامت عليها النصرانية .

قرأت عن معجزات عيسى أنه أسكن الريح وأنه شفى المرضى وأنه أحيى الموتى . وقرأت أنه أعاد الحياة الى جثة رجل كانت قد بدأت فى التعفن بالفعل . وإسكنى لا أ كذب القارىء فى شيء . فأنى اذ كنت أقرأ هذه الروايات كنت أشعر شعوراً خفياً يزيدنى اكباباً على درسها وطول التأمل منها . ولعل الانسان فيه بالفطرة نزعة ترغبه في الوقوف على المستحيلات وكيف انشأها العقول البشرية غير أنى ما فطنت الى شيء من أسرار النصرانية بعد أن مررت على كل تلك الخوارق التى لا تصدقها عقول بشرية لم يفتكت فتلتها ولم تغزوها التقاليد . بل فطنت الى سر أسرارها عندما قرأت رواية عيسى في ابراء نفس « موسى » انحطت الى الدرك الاسفل من الرذائل بأن تابت توبة صادقة فخبأها الغفران . ولا جرم أن ابراء النفس معجزة أين منها ابراء الاجسام ورد الأرواح الى الأبدان

نريد أن يكون لنا لغة علمية بالمعنى الصحيح ونبحث في كيفية الوصول الى هذه الغاية السامية . ولا شبهة مطلقاً في أن اللغة العربية قد سدت حاجات الأدب والعلم والفن في العصور الوسطى . ولا ريبه أيضاً في أنها كافية لسد حاجات هذه النزعات العقلية لو أن العقل البشري قد وقف من التقدم عند الحد الذي بلغه العرب حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وهو القرن الذي شهد آخر من ظهر من كبار مؤلفي العرب في أول انحلال المدنية الإسلامية . غير أن هذا العصر كما شهد بدأ انحلال المدنية الإسلامية شهد كذلك تكوين أول جرثومة فُرخت في جو أوروبا لتكون نواة المدنية الغربية . فقد انتقلت حينذاك إلى جامعات أوروبا مبادئ أرسطو طاليس منقولة عن كتاب العرب وأخصهم بن رشد بطريق طلاب الغرب الذين كانوا يفدون من أوروبا ليتلقوا العلم في المعاهد العربية الإسلامية كما نفد نحن اليوم إلى أوروبا نتلقى العلم في جامعاتها الكبرى .

على أننا إذا ذكرنا أن القرن الثالث عشر الميلادي هو بدء انحلال المدنية الإسلامية فأنما نذكر هذا تجاوزاً لأننا نعتقد أن المدينة الإسلامية حملت في تضاعيفها بزور الانحلال منذ أول تكوينها . غير أن الضيعة التي اصطفت بها والصورة التي لا بست المنشآت المادية والأدبية والعلمية في مدنية الإسلام قد اخفت كثيراً من عوامل الانحلال التي ظلت تعمل على هدم كيانتها منذ أول تكوينها

على أني اعتقد أن نزعة العرب إلى « تعريب » كل ما وصلت إليه يدهم من المستحدثات المادية والفنية ومجاراة الذين استعربوا من الفرس والروم وغيرهما من الأمم لهم في هذا المضمار كان أعظم ستر تسترت وراءه عوامل الانحلال التي بثت من تضاعيف تلك المدنية . وهذه الحقيقة تجعلني أميل كل الميل إلى القول بأننا إذا أردنا أن نكون لغة علمية صحيحة فلواجب علينا أن نجاري الأساليب التي اتبعتها العرب في عصور نهضتهم الأولى . وهي ولا شك

أساليب أرخت نزعاً العقول في ذلك الزمان فلم أعندى من هذه الوجهة أعظم المبررات .
على أن نهضة العرب العلمية الأدبية كانت اذا قيست بنهضة النصرانية في
أوروبا مصبوغة بالكثير من ضروب التسامح الديني والعقلي . لهذا تجد أن
العرب لم يأنقوا من التعريب في المفردات ، بل ضحوا كثيراً من أساليب
اللغة في سبيل التعبير الخرفي عن المعاني التي نقلوها إلى لغتهم في الفلسفة
والعلوم . وهذا التطرف ان كان غير محدد الأثر ولم يقد العربية فائدة كبرى
غير أنه يصح ان يتخذ دليلاً على تحرر عقولهم وعلى استعدادهم لتضحية أساليب
اللغة في سبيل تنمية الفهم والمعرفة . والبرهان الأقوى على هذا تلك التراجم
التي خرجت من يد حنين اسحاق واسحاق ابنه وحبيش الاعسم وغيرهم من
المترجمين في العصر العباسي . تلك التراجم التي ضحيت فيها اللغة العربية
وأساليبها أي تضحية ابتغاء النقل على أية صورة .

هذا التسامح الكبير كان مضرراً باللغة ولكنه كان مفيداً في تربية نشء
اصطبغ بالصبغة اليونانية السريانية واستطاع بعد قليل تكوين مدارس لها
أثرها الخالد على تاريخ الفكر .

أما اليوم فلسنا في حاجة الى تضحية كثير من أسلوب اللغة على ما اعتقد .
والسبب في هذا على ما يخيّل الى أننا أوقف على أسرار اللغات التي نترجم عنها
من مترجمي العصر العباسي وغيره من العصور ، ولذا نلاحظ أن اللغة العربية
بين أيدينا أطوع في التعبير واساس في القياد ، لا لاننا أوقف منهم على أسرارها
بل لاننا أوقف على أسرار اللغات التي تنقل منها .

غير أنه ينقصنا شيء واحد توافرت لدى العرب أسبابه . ينقصنا في ناحية
المراجع العليا التشجيع وينقصنا في ناحية أنفسنا حبنا للعلم لذاته لالنتائج
المادية . أما اذا توافرت لدينا الأسباب فأننا نستطيع أن نكون لغة علمية عربية
صحيحة تكفي حاجات العلم الحديث .

يقولون بان الشرق تنقصه الاخلاق ويقولون بانه ينقصه الاتقان . كما يقولون بان الشرق في حاجة الى اصلاح ذات النفوس على وجه عام . غير اني ارى أننا احوج ما نكون من هذه الاشياء الى تشرب روح الفن . وما اقصد بروح الفن دراسته ومعرفة تاريخه . ولا اقصد أن يكون الفن حرفة عند جميع الناس او مرتزقاً أو مهنة يمتهنونها . بل اقصد بتشرب روح الفن ان يصبح كل انسان فناناً بميله المكتسبة .

يجب ان يتعود الشرقيون النظر الى اعمالهم نظر الفنان الى فنه . و بذلك يكتسبون روح الاتقان ويحبون العمل لا لاجل مزاياه المادية أو عوائده المادية ، بل يحبونه كفن يجب اتقانه اولاً . ولا جرم أن ذلك يعود بكسب مادي مضعف ذلك لان الناس يحبون الفن ويحبون الجمال بغرائهم . فاذا تسربت روح الفن وروح الجمال الى المنتوجات والمستحدثات عاش الفن وأزهر وأصبح الفن قاعدة الحياة .

*

* *

الفرق بين الانسان في عصوره الاولى والمصر الحاضر من حيث النزعات العقلية ، أنه في ازمانه الغابرة كان يحتاج الى الاعتقاد ، اما الآن فانه يحتاج الى الشك .

اكتفى الانسان في عصوره الاولى بان يعمل الاشياء تعليمات ظاهرية بما أوحى اليه تصوره . اما في العصر الحاضر فان النقد قد استوى على عرش العقل البشري حاكماً بامره . ولهذا فنحن احوج الآن الى الشك منا الى الاعتقاد

*

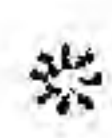
* *

بين النزعة الدينية وفكرة وجود الله رابطة عقلية قوية . فانه لا يمكن أن تعثر على دين من تخير أن تقع فيه على فكرة وجود خالق . ولقد دارت المعركة قديماً بين العلم واللاهوت وما نتصد به سوى المذاهب الدينية التي أصبحت في

نظر اربابها مقدسة كمتون الدين الاصلية . اما اليوم فسوف تدور المعركة كما يقول .
 الاستاذ جوليان هكسلي ، حول فكرة وجود خالق ، أو بالاحرى حول فكرة
 وجود الله . على اننى لا ادرى كيف تدور المعركة حول فكرة وجود الله وهو ليس
 في الازهان أكثر من فرض ضرورى تقتضيه الكفايات العقلية فى الانسان ؟
 فرض من تلك الفروض التى لا يستطيع العقل أن يحتفظ بالفته وتماسك نواحيه .
 من غير أن يعتمد بصحته اعتقاداً الزامياً لا اعتقاداً اقناعياً . اذن يخلق بمن يقول .
 ان المعركة القادمة ستدور بين العلم وبين فكرة وجود الله ، انه يقول بأن المعركة
 تقوم بين صفتين عقليتين ؛ احدهما تكرهنا على أن نفرض وجود الله فرض ضرورة
 ، والاخرى تجعل الشخص من ذلك الفرض



يحتاج من يؤيدون الدين أن يثبتوا صحة التنزيل انتهت المعركة
 القاءة بين الدين والعلم بانتصار الدين . على أننا لا نقصد « بالاثبات » الاثبات
 العقلى ، بل الاثبات العقلى الذى يقره العلم . لانك لا تستطيع أن تقنع « العلم »
 الا ببرهان مستمد من اسأوبه وقائم على طريقته . اما صحة التنزيل فقاءة على
 قبول فكرة الوحي . وعندى أن الوحي والتنزيل لم يقم عليهما الى الآن دليل
 يثبت أن يطعن اليه العقل .



✽ ✽
 فى التاريخ امثال كثيرة نزلنا على أن امماً برمتها قد فسدت وفنت بموت
 زعمائها . كما انك تقع على امثال كان فساد الامم فيها عامل من اكبر العوامل على
 على فساد الزعماء وموتهم ادبياً . ولا جرم أن المثل الثانى اكثر انطباقاً على امم
 الشرق فى حالتها الحاضرة من المثل الاول



اعتقد ان للفن طرفان احدهما بالغ منتهى الجمال والاخر بالغ منتهى القبح

خالفنان الذى يخرج لك من ريشته او ازمياله صور. او تمثالا يبهجك جماله او
 المعنى الذى يلقى على سمعك مقطوعة تطير بك الى عالم الأثير، لا يفضل عندى
 فنان يخرج لك صورة تمثل منتهى البشاعة والقبح . ليست قدرة الاول على
 تصوير الجمال تناظرها قدرة الثانى على تصوير القبح ؟ واذا كانت الملاحظة محبوبة
 عند الناس والقبح مبعوض فذلك راجع الى الميول البشرية، لا الى الفن من حيث
 هو قدرة على تصوير مختلف صور الحياة

فيانو بواس

